

الثقافة والحضارة : من أجل قراءة تتجاوز نظرية «صدام الحضارات»

الأستاذة سامية اللجمي

حضارة أم حضارات ؟

سؤال طرح بأشكال متعددة منذ سقوط حائط برلين ونهاية الحرب الباردة.

أجاب عنه فوكوياما فحدثنا عن «نهاية التاريخ»⁽¹⁾ وانتصار الليبرالية والقيم الغربية والعولمة، ومن ثمّ فنحن نتجه صوب حضارة عالمية يسودها فكر واحد.

لكن سرعان ما ردّ عليه هانتنتون⁽²⁾ مبينا أن التاريخ يسير باتجاه آخر : عالم متعدد الأقطاب، تلك الأقطاب حضارات، العلاقة بينها قائمة على الصراع، وجعل هذا التصوّر عنوانا لكتابه «صدام الحضارات».

هذان الكتابان كانا محورا لعدد النقاشات إلا أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وجهت الأنظار من جديد إلى كتاب هانتنتون، إذ وجدت عديد الجهات الفكرية والسياسية في أنموذج «Paradigme» صدام الحضارات أداة لقراءة مجريات الأحداث منذ ذلك الحين.

(1) Fukuyama (F) : la fin de l'histoire et le dernier homme. Paris Flammarion 1992.

(2) Huntington (S) : Le choc des civilisations. Paris Odile Jacob 1997.

لهذا ونظرا لارتباط الأسس النظرية لأنموذج ، صدام الحضارات ، بموضوع ندوتنا ، رأيت أن أتناولها بالبحث لأبين - وخلافا لما يوحي به هذا الأنموذج من تماسك - تعدد نقاط ضعفه من وجهة النظر السوسيولوجية ، ثم أنطلق من ذلك لأبرز أهمية سيرورة اللقاء / التبادل / التحول في نشأة الحضارات وتطورها ، ومحورية صيغة الجمع في سؤال الحضارة .

I . مبررات أنموذج ، صدام الحضارات ، :

(1) عرف الغرب تاريخيا أصنافا مختلفة من الحروب هي على التوالي : حروب بين أمراء ، وحروب بين دول أمم ، وحروب بين اديولوجيات ، وهو يشهد الآن حسب هانتنغتون مولد جيل جديد من الحروب ، حروب الحضارات . فبعد الحرب الباردة سيقوم النظام العالمي على حضارات كبرى : الحضارة الغربية والكنفشيوسية واليابانية والإسلامية والهندوكية والسلافية - الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية وربما الإفريقية . ولكل حضارة منها وتيرتها الخاصة . أما الاختلافات الثقافية بينها فعميقة وغير قابلة للاختفاء وتتعلق برؤاها المختلفة لعلاقة الإنسان بالله ، والمواطن بالدولة ، والآباء بالبنين ، ومفاهيمها للحريات والسلطة والمساواة والتراتبية ...

(2) إن ثورة الاتصالات التي يشهدها العالم والعولمة ستخلق فراغات كثيرة في حياة الشعوب يملؤها الدين ، ويكون ذلك عامة في شكل حركات أصولية متشددة . هذه العودة إلى الأصول تحدث في الحضارات غير الغربية ، أما نشر الغرب لقيم الديمقراطية والليبرالية كقيم عالمية تضمن تفوقه العسكري وتنمي مصالحه الاقتصادية ، فسيولد لدى الحضارات الأخرى ردود فعل رافضة لهيمنته سيما وأنها تشهد نموا متزايدا بينما بدأت تتبلور بعض مؤشرات تراجع الهيمنة الغربية . وعلى هذا الأساس فإن الصراع بين الغرب وبقية العالم سيكون محور السياسة العالمية . أما المثال الأكمل لهذا التحالف ضد الغرب فسيكون في شكل تحالف بين الدول

الإسلامية والكنفشيوسية التي تختلف في كل شيء وتتفق في عدائها للغرب (الغرب ضد بقية العالم).

(3) إن الحضارة هي المستوى الأوسع الذي يمكن للفرد أن يتطابق معه ويدرك نفسه من خلاله. والحضارة ذاتية ثقافية. والثقافة والحضارة تشملان قيما ومعايير ومؤسسات وأنماط تفكير أولتها أجيال متعاقبة ومجتمعات محددة قيمة قصوى وتبلور جميعها ضمن نطاق الأديان. وبينما كان بإمكان الإنسان في مرحلة الصراعات الإيديولوجية أن يختار الجبهة التي ينتمي إليها فإن الخط الفاصل بين الصديق والعدو في السياق الجديد يركز على الهوية وسؤال من أنت ؟ وهو معطى لا يمكن تغييره. فالإيمان والعائلة ثم العقيدة ورابطة الدم هي ما يتصارع الناس من أجله ويموتون.

«إن الحضارات شاملة Englobante وتتمتع بقدرة ادماجية هائلة، لذلك فإن الدول التي تنتمي إلى نفس الحضارة تجد سهولة في التواصل عكس غيرها والتي تعيش دائما في صراع.

(4) إن خطوط الصدع بين الحضارات أصبحت جبهات صراع ديني لأن الدين هو النواة المركزية للحضارات.

فبإمكان الإنسان أن يكون نصف عربي ونصف فرنسي أو أن يكون مواطنا ينتمي إلى بلدين لكن لا يمكن أن يكون نصف كاثوليكي ونصف مسلم هكذا كان بإمكان الصراع الإيديولوجي أن يختفي في أوروبا، بينما الصراع بين «الغرب والإسلام» وعمره 1300 سنة غير مؤهل للاختفاء. إن سقوط الشيوعية حسب هانتنغتون قضى على عدو مشترك للغرب أما الإسلام فهو العدو الجديد للغرب في القرن الحادي والعشرين.

وبناء على ذلك فإن السياسة ستكون داخليا إثنية وعالميا حضارية تعمل فيها الصراعات من تحت إلى فوق، وخلالها يبحث كل طرف عن «أقارب» له في الحضارة يستعين بهم في مواجهة الحضارة الأخرى.

5) هذه الوضعية التي سيواجهها الغرب أكثر فأكثر تقتضي إجراءات :

1 - على الأمد القصير وبما أن ميزان القوى بصدد الانتقال من الغرب إلى الإسلام وحلفائه فإنه يتعين.

أ - تنمية التعاون بين الدول الغربية (أروبا + أمريكا) وإدماج أروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية باعتبار القرابة الموجودة بين ثقافاتها والثقافة الغربية. وفي ذات الوقت إقامة علاقات مع روسيا واليابان ودعم الحضارات المتفهمة لقيم الغرب.

ب - سعي الغرب إلى الحد من القوة العسكرية للحضارات المناوئة خاصة الإسلامية والكنفوشسية واستغلال ما ينشأ بينهما من اختلافات وبالمقابل المحافظة على التفوق العسكري للغرب وخاصة الأمريكي في منطقتي شرق وجنوب غرب آسيا.

2 - أما على الأمد البعيد فيتعين على الغرب :

أ - تفهم المبادئ الدينية والفلسفية التي تركز عليها الحضارات الأخرى.

ب - التعرف على العناصر المشتركة بين الغرب والحضارات الأخرى فلن يكون هناك حضارة عالمية بل عالم من الحضارات كل منها تتعلم التعايش مع غيرها.

هذا التقديم الموجز | الذي لم يتناول ما تضمنه الكتاب من ثراء في مستوى المقاربة السياسية للعلاقات الدولية إضافة إلى تنوع الوثائق والأمثلة التاريخية | يبرز الثقافة والهوية والحضارة كمحاور أساسية اعتمدها هانتنغتون في صياغة أنموذج «صدام الحضارات» مما يدفعنا إلى التساؤل التالي : بأي مفهوم استعملها ؟ وهل تغطي مفاهيمه الحقائق التي تحيل إليها ؟

II - قراءة في أسس نموذج «صدام الحضارات» :

1 - الثقافة :

الثقافة في أنموذج «صدام الحضارات» مدونة من القيم والمعايير وأنماط التفكير الثابتة. وهي بهذا المعنى منغلقة على ذاتها وتحدد في ضرب من الحتمية اتجاهات سياسية بعينها.

تلك الاتجاهات لا يمكن التوفيق بينها وبين غيرها التي نشأت داخل ثقافة مغايرة. وعلى هذا الأساس تتحول الاختلافات الثقافية الى حدود محكمة الانغلاق وتصبح تدريجيا جبهات اقتتال دموي لا ينتهي إلا بتذويب الآخر وإخضاعه أو تصفيته وهو «صدام الحضارات».

بهذا المعنى تبدو الثقافة «ذاتا» متعالية تختار الناس ولا يختارونها.

فإذا كانت الثقافة بدرجة أولى موروثا اجتماعيا تمتد جذوره في عمق التاريخ فإن كينونتنا كما يعلمنا هيجل انتاج ومن ثم فإن الثقافة تحيل إلى حقيقتين : فهي من ناحية ما يدوم، ومن ناحية أخرى ما يبتكر. فإذا نظرنا إليها من الزاوية الأولى كانت نقلا وإعادة إنتاج وثقالة Pesanteur أو «سجنا على حدّ تعبير» بروديل⁽³⁾.

أما إذا نظرنا إليها من الزاوية الثانية فإنها تعكس تلك العمليات التي بواسطتها ينتج الفاعلون وعلى نحو صراعي تاريخهم وذلك من خلال تحديدهم لذواتهم نسبة لإدراكهم للماضي وتمثلهم للمستقل، وهي من هذه الناحية مبتكرة.

إن الثقافة كنتاج لجدلية الاستمرار والتغيير ليست جامدة ولا محكمة الانغلاق Hermétique بالنسبة لغيرها من الثقافات، فالبيثقافي مكون للثقافي على حدّ تعبير تودوروف⁽⁴⁾ إن الفضاء الثقافي الذي تحيا فيه جماعة ما فتقيم وتفكر وتتكلم هو فضاء التقابليات Isomorphies، إنه لا

(3) Braudel (F) : Grammaire des civilisations. Paris champs 1993.

(4) Todorov (Z) Nous et les autres : La réflexion française sur la diversité Paris seuil 1989.

يسكن في تاريخه أو دينه أو أساطيره أو علمه أو تقنيته أو هيكله العائلي، بل يعيش على الجسور التي تربط بين تلك «الجزر». ومن ثم تبدو الثقافات كعرى وصل Noeuds de connections وهي تتحقق في عملية الوصل ذاتها (5) مما ينفي عنها كل مآ هوية أو جوهرية.

إن نفي تلك الصفات المحجرة للثقافة لا يعني نفيا لوجودها وفي هذا السياق تبدو استعارة قادمار Gadamer لصورة الأفق معبرة جدا يقول : «فكما إن الإنسان لا يمكن أن يكون مجرد فرد بحكم اندراجه دوما في علاقات مع الآخرين، فإن الأفق المغلق الذي يفترض أنه شامل للثقافة ليس إلا تجريدا. ولأن الحركة التاريخية للحياة البشرية لا تحدث في مكان واحد، فإن أفقها لا يمكن أن يكون مغلقا حقا. فالأفق في الحقيقة شيء ننمو بداخله وينمو معنا لأن الأفق يتغير مع إنسان يتحرك».

هكذا تبدو صرامة الحدود الثقافية التي يتحدث عنها هانتنتون نسبية جدا. فإذا عرف التاريخ في بعض مراحله تراجيديا الحدود فذلك لا ينبغي أن يخفي ديناميتها. فالمناطق الحدودية كانت دائما جسورا أو أبوابا على حد تعبير سيميل (6). وقد شهدت ولادة انجازات فريدة تعكس ذلك وبقدر ما تبدو الحدود الجغرافية واضحة على الخرائط، تبدو «الحدود الثقافية» ضبابية ومتحركة بحيث يستحيل رسمها نهائيا، لأنها تحدث بين الناس وداخلهم. بل وحتى الحدود الموضوعة على الأرض كانت دائما نقاط عبور ولقاء تشير إلى الاتصال أكثر من الانفصال. وقد بينت مجلة نيوزويك الأمريكية في ملف فتحته أواخر التسعينات (7). أن سعي الولايات المتحدة إلى إحكام إغلاق حدودها مع المكسيك لم يمنع من تحول الفضاء القائم في شمال المكسيك وجنوب الولايات المتحدة إلى فضاء

(5) Serres (M): Discours et parcours dans l'identité sous la direction de Levi Strauss. Paris Grasset 1977.

(6) Simmel (G) : Digressions sur l'étranger traduit par Philippe Fritsh. Paris Aubier 1984.

(7) Badie (B) Smouts (MC) : Le retournement du monde sociologie de la scène internationale. 3ème ed. Presse des sciences PO et Dalloz 1999.

ثقافة جديدة ثقافة المكسيكيين الأمريكيان فالخط الفاصل بين الدولتين لم يعد حدًا بل تدفقًا Une Coulée .

هكذا تنقلص صورة الثقافة ككلية مندمجة ومتماسكة تمحو كل أشكال عدم التجانس والتنوع والتوتر والصراع. [وليس المقصود بذلك اتجاه ثقافة إلى توحيد أنساقها وقيمها وأفكارها].

فإذا كان لكل ثقافة خصائص مميزة ومائلة كما يذهب إلى ذلك هانتغتون، فإن تلك الخصائص ليست أبدية، وهي لا تتعالى على قوانين العالم الاجتماعي.

2 - الهوية

سؤال الهوية محوري في نموذج «صدام الحضارات». وعلى أساسه يتحدد الصديق والعدو وتتحدد خطوط الصدع بين الحضارات المختلفة. فالهوية في مفهوم هانتغتون على شاكلة الثقافة ذات نقية. إن الهوية من منظور اجتماعي تحيل إلى دالتين متناقضتين.

- فهي من ناحية تحيل إلى خاصية ما هو مطابق Identique [كخاصية لموضوعين يماثل أحدهما الآخر مع بقائهما منفصلين].

- وهي من ناحية ثانية تؤكد على وحدانية المختلف اختلافًا كليًا عن غيره من المواضيع.

فالهوية فردية أو جماعية تتقدم من خلال هذه المفارقة، فهي ما يجعل الأفراد والجماعات متشابهين ومختلفين في ذات الوقت.

ذلك الاستقطاب الأساسي في تكوينها وينبغي أن يظل قائمًا إذ بدونه يكون السقوط في أحد طرفي المفارقة :

- اللاتمايز التوحيدي L'indifférenciation fusionnelle

- الوحدانية الانطوائية L'unicité autistique

وكلاهما خسارة للهوية : الأول يُهدد بالذوبان في المتجانس والثاني يهدّد بالتجزئة والتمزق⁽⁸⁾.

ولقد استعمل تايلور مفهوم الحوارية⁽⁹⁾ La Dialogique ليعين كيفية تكون هوية الفرد من خلال الاتصال بالآخر والتبادل المستمر، وبذلك يصبح الاختلاف قيمة في ذاته. إنّه يساعد الفرد على خلق مسافة إزاء هويته فيدفعها إلى النمو من خلال مقارنتها بأنماط هويّة أخرى. ولا يكتفي الفرد في هذه الحالة بملاحظة الآخر واستدماجه على نحو أداتي بل يتعلق الأمر بدينامية ما بين ذاتية على نحو ما بينته أعمال ميد. فقد بين هذا الأخير أن جزءاً من هوية الفرد تكمن في نظرة الآخر : فكل منا يحمل بشكل متفاوت الوضوح حكماً على هوية الآخر ويتلقى في الاتجاه المعاكس حكم الآخر عليه، وبذلك يبرز الاختلاف كشرط ظهور الهوية ذاتها.

والهوية الثقافية شأنها شأن الهوية الفردية لا تنفصل عن علاقة بالغيرية والاتصال ما بين الثقافي.

هكذا تبدو الهوية سيرورة ديناميكية في طور نموّ متواصل وغير متجانس، تتحدد في ذات الوقت بصفات الخاصة وعلاقاتها المتبادلة.

أن البعد العلانقي في الهوية يؤكد على أن الهوية ليست ذاتاً نقية ولا جوهرية. وهي ليست ماهية ملازمة لجماعة معينة ولكنها نتيجة بناء. هذا لا يعني إنكاراً للهويات التي يشعر بها الناس كأوليّة على العكس هذه الهويّات موجودة لكن في الوعي أي كأنظمة ذاتية لا كبنى. فهي في ذاتها ليست عوامل مفسرة بل تحتاج بذاتها الى تفسير وعليه ينبغي أن نفهم الشروط التي تجعل عناصر جماعة معينة يتعاملون معها كنواة أصلية وصلبة.

(8) Lipians (E.M) : Communication interculturelle et modèles identitaires. in Identités, cultures et territoires sous la direction de J.P Sa ez Desclée de Brouwer Paris 1995.

(9) Taylor (CH) : Multiculturalisme, Paris Aubier 1994.

يؤكد بارتراند بادى على العلاقة الوثيقة بين الهوية والممارسة السياسية ف وراء كل عملية تأكيد للهوية استراتيجية سياسية تشكل وتغير هيكلية الهويات مع إعادة تحديد أبعادها وطبيعتها⁽¹⁰⁾. هكذا أنتجت الأطر اللغوية والدينية والإثنية والاقتصادية وبحسب أشكال تعبئة سياسية متعددة فضاءات هوية *Espaces Identitaires* متفاوتة بحسب خطوط تجزئة غير قارة في التاريخ. فالهوية الكردية والتامولية مثلا لم تكن دائما حاملة للتعبئة. أما الهويات البلقانية فلم تتبع دائما التقسيمات اللغوية أو الدينية. فالسلوفاك الشرقيين والسلوفاك الغربيين مثلا يبحثون على الانفصال والتمايز برغم انتمائهم الى نفس الجماعة اللغوية. أما الأفغان الذين توحّدوا بالأمس في مقاتلة السوفييات باسم الإسلام فهم اليوم منقسمون لأسباب إثنية وسياسية.

أما بايار⁽¹¹⁾ الذي اهتم بالصراعات الهويّة في روندا خلال التسعينات فيتساءل : لماذا لم يستجيب الهوتو الرّونديون في قتلهم للتّوتسيّ الا لبرنامج هويتهم ؟ لماذا انتظروا حتّى هذا الوقت لتنظيم عمليات التصفية ؟ ولماذا امتنع العديد من الهوتو عن المشاركة في عمليات الإبادة متمسكين بأشكال أخرى للمطابقة كالدين والمثال الديمقراطي والقومية الروندية ؟ لماذا حمى التوتسي البورنديون الهوتو الذين لاحقهم الكولونيل ميكامبارو سنة 1972 ؟

أليس معبرا أن نجد وراء أعمال القتل والنهب ميليشيات الهوتو وهي تنظيمات شبه عسكرية تنتدب أعضاءها من ضمن شباب فقير عاطل عن العمل يعيش في سياق اقتصاد هدمته الحرب والأزمات، قسم منهم مصاب بالسيدا ومحكوم عليه بالموت، وهم فوق ذلك يتقاضون أجورا على عمليات الإبادة من طرف الذين انتدبوهم ليسمحوا لهم وعلى نحو مفاجئ بإشباع نغماتهم ؟ زيادة على ذلك فإن العقول التي دبرت

(10) نفس المرجع . Badie (B) Smouts (M.C).

Bayart (JF) : *L'illusion Identitaire*, Fayard 1996. (11)

وخططت للمذابح عقول تكونت في الجامعات الأوروبية والأمريكية وهناك تلقوا فكرة وجود نقاء اثني وهي فكرة غريبة عن تاريخ بلادهم.

فخلافًا للتحاليل التي تُجَوِّهُ الهوية، هذه الحرب اجتماعية سياسية وأيضاً اثنية هذه الملاحظات تلتقي بنتائج أعمال فيبر⁽¹²⁾. إنّ الجماعة الإثنية من وجهة نظره جماعة متخيّلة Communauté Imaginée أكثر منها حقيقية إذ تقوم على الاعتقاد في وجود أصل مشترك. فالعلاقات الإثنية تقع في مستوى الأفكار وهي لا تحيل إلى بني وبذلك يبرز الاختلاف بينها وبين الانتماء العرقيّ Appartenance Raciale الذي يحيل إلى المخزون الوراثي. إلا أنّ هذا الفرق غير واضح في التمثلات والممارسات فيمكن للانتماء الإثني أن يجوهر وأن يعتبر أكثر قهراً ممّا هو عليه في الحقيقة فينظر له كطبيعة ثانية.

هذه النظرة الطيعانية راجعة إلى كون العائلة هي المثال الأول للجماعة القائمة على وحدة الأصل⁽¹³⁾ لذلك يتمّ تعميم رمزية العائلة الممتدة على كل تصنيف إثني من العشيرة إلى الأمة مروراً بالقبيلة وهاتنتغتون يعممه على الحضارة : الإيمان والعائلة / العقيدة والدّم.

[Dans une guerre civilisationnelle, Chacun des deux tente d'étendre la guerre et de mobiliser ses proches, «parents»] P 281.

أن الهوية ليست غيتو Guetto كما صورتها في أنموذج «صدام الحضارات، بل الهوية تفهم وتتحمل وتمارس كسيرورة لقاء ديناميكية، وبناء على ذلك يمكن أن تكون مؤسسة لإعادة اكتشاف الغيرية وإرساء الحوار⁽¹⁴⁾.

(12) Weber (M) Economie et société. Paris Pocket et 1995.

(13) Patez (F) : Quelques remarques sur l'imaginaire national, les cahiers du Cérium N° 3 octobre 1998.

(14) Barck (K) : La culture en tant qu'action politique in Repenser le culture». Colloque tenu à l'université de montreal (3 - 5 avril 1992).

3 - الحضارة

تتكون الحضارات حسب هانتنغتون حول نواة واحدة من القيم لا تتغير، وهي تتصارع من أجل الولاءات الحضارية والهيمنة : «الغرب ضد بقية العالم، أو الغرب ضد الإسلام».

فبرغم أن علماء الجيولوجيا تخلّوا عن فرضية النواة النارية البركانية الموجودة في قلب الكرة الأرضية، يعتقد هانتنغتون «اعتقادا صلبا كالحديد في وجود نوى صلبة متوهّجة في قلب الحضارة. تنبجس الحضارات بدافع منها انبجاسا فريدا».

فهل نمت الحضارة الغربية بمعزل عن غيرها ؟ وهل هي نتاج صاف يستمدّ جذوره من الموروث الفكري الإغريقي العقلاني والديانة المسيحية كما يذهب إلى ذلك هانتنغتون ؟

يبرهن توينبي⁽¹⁵⁾ على أنّ المؤسسين الأوائل لذلك الموروث كطاليس وهيرقليطس واكزنوفون وديمقريطس هم أغارقة آسيويّون متأثرون بطابعهم الآسيويّ.

أما غارودي فيري أن ما يعتبر أصلا إغريقيا خالصا ليس إلا ثمرة لقاء بين فينيقيا وكريت ومصر، وعن الحضارة المصرية انحدر مفهوم الثنائية في الفلسفة اليونانية، وإليها يُعزى الفضل في تطوير مفهوم الصيرورة وكذلك فكرة التوحيد التي توصل إليها الفرعون أخناتون. أما القول بانفراد الغرب بتطور حالة فكرية للسيطرة على الطبيعة فغير سليم تاريخيا لأن الفكرة ولدت منذ 3 آلاف سنة قبل الميلاد في مصر وبلاد الرافدين. لذلك فالحضارة الغربية لا تنفصل عن جذورها الشرقية والآسيوية والإفريقية. أما جعل المسيحية نواة للحضارة الغربية فزيادة على كونها فكرة تكرر وجود سمات جوهرية ثابتة في المسيحية

(15) Toyenbee (A) : Le monde et l'occident, Paris Gautier 1964.

ومنعمة تماما في غيرها، وتفرض التباين والتضاد في المسيرة التاريخية للحضارات، فإنها تنسى أن المسيحية لم تولد في الغرب بل في الشرق ولكن الغرب صادرها كمعيار لهويته..

نفس الشيء ينطبق على الحضارة الإسلامية فقد تنوعت مصادرها، فقولبت في بوتقة الإسلام ثقافات وحضارات الشعوب التي امتدت إليها. فعندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية فإن ذلك لا يعني أنها قامت على العنصر المسلم دون غيره، بل قد ساهم في بنائها غير المسلمين من المنتمين إلى الأديان الأخرى في الشرق وفي الحضارة الآسيوية والإفريقية.

فلا الأرض ولا اللغة ولا الدين ولا جميعها مشتركة رسمت للحضارة الإسلامية حدودا كالحدود التي رسمها الإغريق والرومان. ولم يكن للإسلام «برابرة» بالمعنى الذي عرفته أوروبا. فمنذ ظهوره وانتشاره وجد في صلبه ثقافات لا تحمل دينه : فأغلب سكان سوريا والعراق وفارس لم يعتنقوا الإسلام حتى القرنين الثاني والثالث للهجرة. ومع ذلك كان الإسلام متفتحا في معاملاته بحسب مصالح الناس والدولة.

ثم إن التباعد الديني لم يحل دون تقارب اجتماعي. فعلى سبيل المثال لم تمنع صرامة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة عامل هشام على العراق من أن يبني كنيسة لأمة النصرانية لتتعبّد فيها. كما أن تلك الإجراءات الصارمة لم تمنع من استقواء النصرانية في العصر العباسي الأول فافتتحت لها مراكز تبشير في الهند والصين انطلاقا من أرض الإسلام⁽¹⁶⁾.

هذه الأمثلة وغيرها تؤكد على أن الحضارة الإسلامية قامت على التبادل والتعدد فكانت نظرتها للآخر نسبية بحيث ينظر المسلم إلى الخصال والعيوب موزعة على الأمم بدون تمييز. وهي على خلاف ما ذهب إليه هانتنغتون انبنت على الحوار وتغذت من التنوع الثري لحضارات وثقافات

(16) الطاهر لبيب : الآخر في الثقافة العربية، في صورة الآخر : العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية 1999.

الذين انضموا إليها من مختلف الأعراق. فالإسلام من هذه الزاوية لم يكتف بتقديم خطابه بل كان يحسن سماع الآخر فاستفادت البشرية كلها من ذلك التفاعل. إن لقاء الإسلام بالفلسفة اليونانية كان أحد الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية فلا غرابة بعد ذلك أن يلقي علماء المسلمين احتراماً من طرف المفكرين الغربيين : فالقديس توما الأكويني مثلاً كان يستعمل عبارة «المعلم» للتحدث عن ابن سينا (17).

أما ما نراه في المشهد المعاصر من تمحور حول الذات ينطلق منه هانتنغتون لجعله قيمة مميزة للحضارة الإسلامية فنسبيّ من ناحية، ولا وجود له في الحضارة الإسلامية قبل انكماشها. فمع بداية تراجعها الداخلي والتهديد الخارجي، بدأ اختزالها للآخرية في الغرب إلى أن أصبح الآخر غرباً (18).

إن تأكيد هانتنغتون على الحضارة كأوسع مستوى يتطابق معه الفرد، وتكليسها من خلال ربط خصائص كل حضارة بنوعية مستعصية من القيم والتقاليد التي تقاوم التغير والآخر المختلف وتبحث على الهيمنة والتأثير، أعطى الحضارات صورة كيانات مجيشة على شاكلة دول أم كبرى تحركها مقتضيات أمنية تنموية ذاتية كسابقاتها في الحرب الباردة.

هذا التصور لا يصمد أمام البحث المقارن في تاريخ الحضارات. فما من حضارة أو ثقافة تحمل بداخلها عنفا وعدواناً طبيعياً إزاء الآخر إلا إذا كانت وراءه إرادة سياسية لها غايات توسعية أو كانت في موقف المدافع عن النفس إزاء آخر يريد السيطرة والاستتباع.

(17) مداخلة الدكتور عبد الواحد بلقزيز الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي في الندوة الدولية حول «حوار الحضارات، نظمها جامعة الأمم المتحدة طوكيو 31 جويلية - 3 أوت 2001.

(18) الطاهر لبيب نفس المرجع.

إن الحضارات ذوات متحركة بداخلها مكونات كثيرة مستعارة تمّ تمثّلها فأنحلت وتركبت بشكل آخر، وليس لديها جوهر واحد ثابت يتحدّى الزمن.

انطلاقاً من هذه القراءة الموجزة في مفاهيم الثقافة والهوية والحضارة يمكنني طرح سؤال الندوة حضارة أم حضارات ؟

III - حضارة أم حضارات ؟

من خلال ما تقدم تبدو جدلية الحركة / اللقاء / التفاعل أساسية في تشكّل أيّ ثقافة وهوية وحضارة.

وقد كانت حركة الناس والسلع والأفكار المحرّك الأساسي لثراء الثقافات ونمو الحضارات، بينما كان التاريخ الحقل الوحيد الذي انبنت فيه هوياتها.

تلك الجدلية تؤكد على التنوع لذلك لم يعرف التاريخ حضارة واحدة مثلت الإنسانية جمعاء.

إن الحضارات كيانات معقدة. هي مزيج من العلاقات المركبة تجسد منجزات الإنسان في مختلف أوجه الحياة، وتقوم على خلفية عقائدية وذاكرة تاريخية وعلاقات إنسانية تشمل ثقافات متميزة تاريخياً. وهي تفرض ذواتها كشكل من الإبداع البشري والحساسية الفكرية والأخلاقية لجماعات بشرية كبيرة لها تاريخها. وعلى هذا الأساس لا يمكن استبدالها أو تعويضها.

ولا تتجسّم الحضارات في بنى مادية بل هي أيضاً بنى رمزية تطرح بداخلها الأسئلة الأساسية التي تمكن الفرد من فهم ذاته والعالم المحيط به وهو عالم أبعاده متعددة ودلائله كثيرة، لذلك لا يمكن لأية حضارة أن تقدم نظرة شاملة تكون مرجعاً للإجابة عن تلك الأسئلة. وعليه لا يمكن لأية حضارة أن تتحمل مسؤولية البشرية جمعاء ولا أن تمثلها. وإذا سلمنا

بأن الآخر فردا أو ثقافة ضروري لاكتشاف الذات، ونفيه بتر لتلك الذات وقطع لجزء منها، فإن أي حضارة لا يمكن أن تحيا ذاتها وأن تختبر قيمها إلا من خلال آخر حضاري.

إن المنادين بحضارة واحدة يختزلون إمكانيات التفاعل في إمكانية واحدة هي التبعية والمطابقة التي تحول دون كشف الذات ونقدها وتدفع إلى الانصهار في أفق الآخر، من ثم تنعدم كل شروط ممارسة فعل الحياة. وعلى العكس من ذلك لا نريد للحضارات أن تكون سجوناً يتوالد فيها الانغلاق والاعتصام بالذات فتتمط الآخر وتُشَيِّطُهُ على قاعدة أن التمايز والاختلاف انعكاس للصراع : صراع «نحن الخيَّرين» مع «هم الأشرار».

إن القول بضرورة تعدد الحضارات يطرح عليها مهمة آنية هي جعل الاختلاف قيمة في ذاته ومؤسّسا للتقارب وذلك لا يتحقق إلا عبر الاعتراف بالآخر La reconnaissance.

إن الاعتراف بالآخر في حضارته يعني الاعتراف به كنظير. هذه الثنائية المختلف / المماثل حاملة لعنف ممكن، إنه عنف غير مَوضِع : عنف الفهم، عنف العلاقات الاجتماعية، عنف القوانين التي ضبّطت إلى حد الآن علاقات الجماعات المختلفة ببعضها وهي أساسا علاقات هيمنة القويّ على الضعيف.

إن حوار الحضارات لا يتحقق من تلقاء نفسه ولا تكفي فيه النيات الحسنة وليس فيه ما يشبه حوار الصالونات. إنه حوار هوية وثقافة وذاكرة جماعية وفيها جميعا يبرز ثقل البعد التاريخي. فباعتباره الحقل الذي تبني فيه الثقافات والحضارات والشعوب هويتها وعلاقاتها بالآخر، فهو الحقل الذي نشأت فيه الاختلافات والعداوات والصداقات، وإليه ينبغي أن تولى الأهمية القصوى في حوار الحضارات.

إنه يحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى مراجعة في مستوى الكتابة والمضمون والتدريس.

IV - خاتمة

إن الحضارات تتشكل على امتداد الزمن وهي لذلك محصلة تراكم تاريخي والتأكيد على الديني والسياسي يهمل «بديهية أن للثقافي إيقاعا تاريخيا مختلفا فلا تتفاعل عناصره. ولا تتألف، ولا تهدأ رؤاه ولا تتكامل إلا في أمد أطول من الأحداث يمتد قبلها وبعدها،»⁽¹⁹⁾ لذلك وبرغم الأوضاع الراهنة المتأزمة فإن صدام الحضارات ليس قدرا.

(19) الطاهر لبيب نفس المرجع.